# التكامل المعرفي من وجهة نظر اللسانيات الإدراكية وأثره في إضاءة جوانب النص

د/ دحمان نورالدين
جامعة حسيبة بن بوعلي- شلف

إنّ علماء الأصوات يرون أنّ كلمات اللغة وألفاظها تتكوّن من وحدات صوتية مرصوفة بعضها إلى جنب بعض، وعلماء الصرف يرون كلمات اللغة وألفاظها مجموعة من الوحدات المورفولوجية الدلالية التي تسهم في بناء الصيغة الصرفية الكبرى. وعلماء النحو يرون أنّ الألفاظ كلّها أو بعضها هي وحدات تركيبية تنتظم في بناء الجملة التي هي وحدة التواصل الأساسية في الكلام البشري. غير أنّ تطور البحث العلمي في رحاب اللسانيات المعاصرة فتح المجال واسعا أمام وحدات لسانية أكبر من الجملة نفسها، وصار الحديث عن "النص" وعن "الخطاب" مألوفا في أدبيات اللسانيين واجتهاداتهم البحثية؛ ممّا جعل الفجوة تضيق بين ميداني اللسانيات والنقد الأدبي وبالتالي تأسّست كثير من القضايا البحثية التي لا تكتفي بجانب علمي معين فقط، بل يفرض اكتمال الرؤية العلمية أن تتآزر مجموعة من التخصصات تصبّ في إطار فهم كلي وشامل للنص.

وبما أن اللسانيات الإدراكية تخصص علمي يجمع في ثناياه أشتاتا من التخصصات العلمية الإنسانية منها وغير الإنسانية فإنّ بإمكانها أن تسهم في إضاءة جوانب النص من مختلف زواياه.

وهكذا فقد احتلت اللسانيات المعاصرة بواسطة التيارات المتلاحقة التي عرفتها تطورا هائلا في النظرية والمنهج والإجراء مكّنت من تشعب المباحث اللسانية إلى مناطق بحثية لم تكن أصلا من اهتمامات اللسانيين في وقت من الأوقات.

وهذا ما جعل اللسانيات تنفتح على هذه الأطر البحثية سعيا إلى استكمال النظرة إلى اللغة الإنسانية وإسقاطاتها ومآلاتها, ولن يتيسر ذلك إلا بالاستناد إلى العلوم التي بإمكانها إمداد الدرس اللساني بكل المعارف التي تؤهل عمل المحلّل اللّساني إلى الدّقة والصواب.

وتعتبر اللسانيات الإدراكية فرعا هاما جدا في هذا المجال لانفتاح مجال الدراسة اللسانية في إطارها على التجارب النفسية والعصبية التي أجريت وتجرى على الدماغ البشري في منطقة اللغة وباقي المناطق الدماغية التي تؤثر على منطقة اللغة عند الإنسان وتتبادل معها التأثير والتأثر.

والدليل على ذلك، أنّه لا يمكن في ظلّ هذه النظرية فصل اللغة كنشاط إنساني عن بقية المهارات الإنسانية الأخرى على الأقل على مستوى الدماغ كالتذكر والتخيل والذكاء؛ وكلّها تصبّ في إطار تشابك هذه الأنشطة وتآزرها خدمة لنظرة تكاملية للّغة وللسلوك الإنساني.

وفي هذا الإطار فإنّ اشتمال النصوص الأدبية والإبداعية عموما على العناصر البلاغية والفنية والجمالية ترتدّ في أصلها إلى اعتبارات ثقافية وحضارية يجعل الاستناد إلى تكامل العلوم المعرفية من شأنه أن يخدم الاتجاه نحو فهم النص في كلّيته وشموليته. وبالتالي فمن المواضيع الهامّة التي اهتمّت بها لسانيات الإدراك "الدلالات الحقيقية والدلالات

المجازية". واعتبرت لسانيات الإدراك أنّ المجاز وتوابعه ليس زينة لفظية وحلية بلاغية بمقدار ما هو بنية ذهنية ودماغية تعكس رؤية للكون وللحياة.

وبديهي عن القول أنّ هذا الوصف ينسحب على ما يشكّل كلَّ أنواع العناصر البلاغية من مجاز واستعارة وتشبيه وكناية. وهو ما أدّى إلى أن تتأسس إشكالية لسانيات الإدراك على فرضية اعتبار مستوى الضبط النظري والمنهجي الذي عرفته الدراسة اللسانية المعاصرة وخصوصا المدرسة التوليدية التحويلية عند رائدها "نعوم تشومسكي"، ومرورا بمجمل التيّارات التي استثمرت الأطر النظريّة لهذه المدرسة اللسانيّة التي تجاوز تأثيرها الإطار اللساني ليمتدّ إلى إدراج العناصر الذهنية والنفسية المشكّلة للظاهرة اللسانية رافدا هامّا في دراسة هذه الإشكاليات على اختلاف أنواعها؛ وهي الإشكاليات التي من شأنها أن تثبت اتجاه العلوم الإنسانية نحو التقاطع والتداخل.

وهذا الموضوع تنبع أهمّيته من موقع اللسانيات ضمن خارطة العلوم الإنسانية التي تقترب نتائجها العلمية من الصرامة التي تطبع جملة العلوم البحتة التي استقرّت أسسها النظرية على الموضوعية والدقة المنهجية الصارمة. وتنبع هذه الأهميّة أيضا من موقع النصوص على اختلاف أنماطها وأضربها ضمن خارطة النشاط الإنساني الذي يشهد انفتاحا على آفاق علمية متعدّدة بفضل الطفرة الرقمية التي قرّبت أجيال البشرية بعضها من بعض ومهّدت السبيل أمام سيل من النصوص المتعددة الأحجام والأنماط والأساليب بمختلف اللغات والألسنة.

هذه السمات اشتركت فيها وفي دراستها كثير من المباحث والحقول المعرفية كالفلسفة والمنطق وعلم الدلالة وفلسفة اللغة واللسانيات

والسيميائيات. وأمّا المباحث التي استقرّ عليها البحث عند علماء الدلالات اللسانية في إطار هذا العلم فهي: أنواع الدلالات والصّلة بين اللفظ ودلالته، والمركز والهامش في الدلالة، وتطور الدلالة وعوامله؛ ومن ضمن مظاهر التطور الدلالي موضوعا "الحقيقة" و"المجاز".

فمنذ الستينيات أصبحت البحوث حول المجاز رائدة في تطوير نظريات الإدراك، هذه النظريات التي تشكّل مبحثا مُهمّا من مباحث "علم النفس الإدراكي". وهي تنظر إلى الذهن البشري على أنّه يشكّل جهازاً حاسوبياً مزوَّداً بوسائل لتغذية المعلومات فيه وإخراجها منه بالإضافة إلى تزويده ببرامج مختلفة تعمل على توجيه عمل هذا الجهاز بواسطة بيانات مُخزّنة في قاعدة بيانات الدماغ البشري.

وهكذا فالمجاز وتوابعه "عملية لغوية تعمل على إنتاج بنيات لغوية من نوع معين، هي البنيات المسمَّاة مولّدة ويتحكّم في إنتاجها ما هو تصوّري وبذلك فإنّ بناءها يتمّ على مستوى التمثيل الذهني."[1]

وهذا الموضوع واسع سعة الفكر الإنساني ذاته، إنّه مترامي الأطراف يحتاج إلى الجهد والعناء لضبطه وحصره وذلك لتشعُّب الاهتمامات التي حاولت تسليط الضوء عليه؛ فهو موجود في: "أصول النحو وأصول الفقه وفقه الشريعة وفقه اللغة وفي الوضع وفي المعاجم وفي الأدب والبلاغة وفي النقد والصرف وفي الجدل والمنطق وفي التفسير"[2].

كما يمكن ملاحظة من جهة أخرى أنّ الفلاسفة واللغويين عبر العصور حاولوا – في إطار المعرفة المتاحة لهم- أن يبتوا في دلالات الألفاظ وإحالاتها أثناء النطق بها على حقيقة ما تشير إليه أم على مجاز ذلك. وهذه المباحث " تعطينا فكرة عن خصوبة نظريات الدلالة والمرجع، ولكنها خصوبة معقدة"[3].

لكنّ تطور البحث اللساني في رحاب التيارات المتلاحقة اتجه نحو الولوج إلى العالم الداخلي الذي يؤمّن الحمولة المعرفية لمستعمل اللّغة لاختيار البدائل الممكنة التي تجعل دلالة هذه الألفاظ اللغوية تبرز إلى الوجود الفعلي، وتتحقّق أثناء الاستعمال. وبالتالي فالمفاهيم التي تطرح في هذا الإطار هي مفاهيم تتعلّق بالتصور أي الإدراك. ومنه فإنّ صورة اللفظ الذهنية هي التي تنطبع في الفكر الذي يجعل تحقُّقه في عالم الأشياء واضحا وجليّا وآليّا ويُمكّن أفراد البيئة اللغوية من تداوله بعد فهمه والاتفاق على دلالته. ومسألة اقتران الدلالة بالمفهوم الذهني تعتبر حاسمة في تعيين المراد من الوحدات اللسانية أثناء تفريقها بعضها عن بعض، ورصد الفروقات الدلالية بينها؛ سواء في ذلك ما تعلّق بدلالة الوحدة اللسانية في حدّ ذاتها وما تعلّق باشتراكها مع غيرها من كلمات اللغة وألفاظها في دلالات تقترب أو تبتعد عن المعنى العام المركزي

أمّا المجازات التي تشحن بها بعض كلمات اللغة وألفاظها فإنّها تكون أقدر في كثير من الأحيان على حمل الشحنة العاطفية التي يريد المتكلم أن يوصلها إلى السامع لكي يتفاعل معه بواسطة نفس كلمات اللغة وألفاظها التي يعرفها كل منهما. ويعود سبب ذلك إلى طابع المجازات الذاتي والفردي الذي يعلم حالها ومآلها من تكلّم بها وطرحها للتداول اللساني. وحينما يُعرض لدور المجاز ووظيفته في التواصل اللساني لا ينفي ذلك - بالطبع- وظيفة الدلالات الحقيقية في اللغة الإنسانية ومركزيتها في الفكر الإنساني وقدرتها على حمل الأفكار والمشاعر إلى الآخرين. وهذا ما يُوصل إلى معرفة الدور الذي تلعبه الدلالة المجازية أو الدلالة الإيحائية؛ وهو قدرتها على تجاوز الدلالات الحقيقية التي-

كما سلف- يشترك فيها أفراد البيئة اللسانية الواحدة، وإدراكها يخضع للعقل والفكر الإنسانيين.

فوجود الإنسان في قلب الكون الواسع المترامي الأطراف والأبعاد يجعل محدودية الوحدات اللسانية تقف عائقا أمام اندماج فاعل مع منظومة الوجود؛ وهذا يظهر الحاجة إلى إدراج "المجاز" في صلب هذه المنظومة اللسانية التي يتوجب عليها أن تنفتح على مجمل السياقات والظروف والأحوال والمقامات التي تدفع الإنسان نحو المجاز بدلا من الاتجاه نحو الحقيقة. وهذا يؤدي إلى تقرير واقع، وهو أنّ: "المعنى المجازي لا يمكن لأبناء اللغة العاديين فهمه للوهلة الأولى، حيث يحتاج إلى سياق أو إلى مقام يبيّن أن المقصود ليس هو المعنى الحقيقي، أي المعنى الذي يتبادر إلى الذهن عند سماع الكلمة لأول مرّة"[4].

فقد يكون الأدب صورة لحياة كاتبه أو صورة لحياة المجتمع، وقد يكون الأدب تعبيرا عن هرب أو شوقا إلى مثالية يتنبّأ بها الأديب مثلما فعل الرومانتيكيون، وقد يكون الأدب تعبيرا عن قيم جديدة يتطلّع إليها الجمهور، وقد يجعل الأديب من الأدب وسيلة للتطهير؛ أي تطهير الكاتب لنفسه أو للآخرين.

ومهما يكن من أمر فإنّ الأديب يتوسل اللغة دوما في تعبيره؛ وبالتالي تكون ألفاظه وتراكيبه هي التي تحمل فكره وشعوره إلى الآخرين؛ "فلغته وعباراته خيالية تصويرية، تسكنها أرواح لا تحصى من المجازات والتشبيهات والاستعارات، وهي أرواح وأشباح لا تنبع في خياله من الهواء، وإنما تتراءى له رؤية في كل شيء"[5]. فإذا ما استطعنا - في ظل اللسانيات المعاصرة- أن نحاول حصر أسرار القول اللساني من خلال رؤية شمولية واسعة، فهذا يدلّنا على قيمة الانتباه إلى مجمل الأفكار التي

بإمكانها مدّ جسور التواصل بين اللّسانيات وباقي حقول المعرفة اللسانية والإنسانية. وبديهي أن نذكر بأن لسانيات النص قدّمت نظريات لسانية استندت على أطروحات علمية تعتبر فتحا في مجال التناول العلمي الجديد للغة الإنسانية بمختلف استعمالاتها، فقد غدت مفاهيمها تغزو ميادين إنسانية بحثية متعدّدة ومن هذه الميادين اللسانيات بمختلف فروعهاوعلم النفس وعلم الاجتمـاع والسياسة والاقتصاد والسيميولوجيا

ولقد أدلى زعماء النصية بدورهم في مثل هذه القضايا المتجدّدة ومن هؤلاء "روبرت دى بوجراند" الذي يعتبر من رواد النّصية في الغرب وفي العالم. وفي هذا الإطار يؤكد " روبرت دي بوجراند" على هذه الفكرة التي طالما أكّد عليها "نعوم تشومسكي"، وذلك فيما يتعلّق بفاعلية القول اللساني حينما يكون مظهرا من مظاهر الكفاءة اللسانية عند مستعمل اللغة.

وهذا الانفتاح هو نفسه أثر من آثار الانفتاح اللساني على دراسات إنسانية كانت مُغيّبة في وقت من الأوقات. وهذا ما ينطبق على العنصر "الدّلالي" الذي أُقصي من رحاب الدراسة اللسانية؛ وأُعيد له الاعتبار في رحاب "النظرية اللسانية التوليدية" التحويلية. وهذا يؤكّد "أنّ هذا التركيب الذي يُكمّل البناء النظري لدى تشومسكي، يضع جملة من القضايا، فمن جهاز توليدي تركيبي بسيط انتقل النحو التوليدي التحويلي إلى نظرية شاملة للكلام من الدلالة إلى الصوت"[6]. وهذه الأفكار التي أرساها "تشومسكي" هي التي استلهمها دعاة اللسانيات النصية وأفردوهـا درسـا وتحليلا واستنبطوا منها ما أعانهم على بناء اتجاه لساني جديد يأخذ في الحسبان البنية النصية الكبرى حينما تكون مظهرا من

مظاهر إبداعية قائلها وانتظام المستويات اللسانية في إطارها خدمة لأهداف المتكلم.

يقول" روبرت دي بوجراند" :" وينبغي لمفهوم المقدرة *competence* أن يحظى بنظرة أكثر اتساما بالتكاملية مما يجرى في العادة في قواعد الجملة *sentence grammar* فعلينا أن نبحث في تحديد القدرات abilities التي تجعل الناس في العادة من أصحاب المقدرة *competent* على إنتاج النصوص وفهمها بنجاح دائم، وهذا النوع من نظرية النص سيكون ذا طابع ذهني *mentalistic* في معناه الأساسي وصالحا من الناحية العملية للتصديق والتكذيب"[7].

فمّما لا شك فيه، أنّ تكامل النظرة بين "تشومسكي" وبين "دي بوجراند" يصبّ بالمحصّلة في رؤية شمولية متكاملة بإمكانها استيعاب ما يظهر على السطح من تشعّب في الأدوات والوسائل اللسانية وغير اللسانية التي تستهدف تفكيك شفرات النص وفهمه واستجلاء الزوايا المعتمة التي بإمكانها أن تقف حائلا بيننا وبين إدراك البنية العميقة التي انطلق منها المتكلم حينما كان بصدد إنشاء كلامه تمهيدا لطرحه للتداول.

فإذا كان النّص يحتوي على لغة وعلى أحداث وعلى دلالة متضمّنة في النص ففي هذه الحالة تجتمع ثلاث خبرات هي: "الخبرة اللسانية" و"الخبرة التاريخية" و"الخبرة النصية"؛ وهذه الأبعاد الثلاثة تجتمع في ذهن المتكلّم وهو بصدد محاولة إنشاء القول والدفع به إلى حيّز التحقق والوجود، كما أنّها العناصر التي تحدّد اتجاه فهم النص. فالإنسان الذي هو ابن بيئته لا يمكنه أن ينسلخ عن الانتماء الجمعي الذي نما وترعرع في إطاره. ولا يمكنه إلاّ أن يصدر عنه لأنّه بذلك إنّما يقف على أرضية صلبة توجّه عملية القراءة وتحدّد فهمه ممّا يستقبل من أفكار ورؤى وإدراكات.

"فالقارئ كما نعرف من دراسات النقد الحديثة لا يقدّم عقلا أو وجدانا يشبه الصفحة البيضاء ليتلقي فيه العمل الأدبي الجديد، بل هو حتّى دون أن يعتمد الترجمة يرجع دائما إلى لغته وتجربته الشخصية خصوصا ما اختزنه من تراث الخبرة الأدبية"[8].

إنّ صفة التقاطع التي اتسمت بها العلوم الإنسانية ولا تزال تؤكّد استفادة اللسانيات من كثير من العلوم التي تمتّ بعض مباحثها بصلة بعضها بالبعض. فلقد استفادت الدراسات اللسانية من لسانيات النص ومن اللسانيات العامّة، واستفادت لسانيات النص من اللسانيات الإدراكية وخصوصا ما يتعلق بآلية الإدراك وما توصلّت إليه معالجة المعلومات الواردة من طريق الحواس وصولا إلى تحليلها في الدماغ؛ وهي الأفكار التي يعالجها علم الأعصاب وكذلك تخزين المعلومات في الذهن. ولا يزال العلماء اللسانيون والإنسانيون يؤكدون على هذا التقاطع المعرفي والتداخل البحثي بين العلوم المذكورة سلفا. فمجمل هذه العلوم تتقاطع مباحثها ومجالات بحثها وبالتالي فالتطور الحاصل في بعضها تستفيد منه الأخرى.

"...وفوق كل ذلك ينبغي لجهودنا أن تكرّس مبدأ تكافل العلوم المختلفة *interdisciplnary co-operation* لأنّ اللسانيات وحدها لا تستطيع أن تقدّم الخبرة المطلوبة لمعالجة النواحي النفسية والاجتماعية والحسابية للنص المستعمل غير ذلك"[9].

إنّ هذه الشروط التي تكوّن المقدرة النّصية لدى النّاص – المنتج للقول- هي شروط أساسية تدخل في صلب الثقافة الإدراكية لدى كلّ من يتصدّى للتعامل مع النصوص مهما كان نوعها؛ وتُضاف إليها عند زعماء النصية شروط لا تقلّ أهمّية عن هذه الشروط - سالفة

الذكر- تتعلّق بالنصوص بمختلف أشكالها وأنماطها، ويمكن ذكر من بينها:

"معرفة أنواع النّصوص *text types*، وإجراءات استخدام النّظم الافتراضية، وإجراءات إنتاج النصوص، وإجراءات استقبال النصوص، وإجراءات المحافظة على النصية، وإجراءات تنظيم إعلامية، وإجراءات استكمال معايير التصميم، وإجراءات إعادة استعمال المعلومات التي اشتمل عليها النص، وإجراءات المراقبة، والتعرف في المواقف باستعمال النصوص، وإجراءات بناء الخطط.."[10]

والقول اللساني يخضع لشروط إنتاج وإرسال واستقبال؛ وعلى هذا الأساس انقسمت اللسانيات العامّة إلى علوم الصوتيات والصرف والمعجمية والنحو؛ ثمّ ظهرت اللسانيات النّصية لتدرج المستوى التداولي. "إنّ مفهوم المقدرة النصية *Textual competence* قد تدعو الحاجة إليه ليضمن المجموعة التالية من المعرفة *Knowledge* والإجراءات *Procedures*: معرفة رصيد البدائل*Options* في النّظم الافتراضية، ومعرفة قيود *Constraints* النّظم الخاصة بانتقاء البدائل أو تلافيها، ومعرفة المعتقدات والمعلومات*beliefs knowledge*والإرهاصات *expectations* الشائعة في المجموعة الاتصالية أو المجتمع عن العالم الحقيقي *Real world*[11].

وللتدليل على التداخل المعرفي بين اللسانيات وبين علوم الأعصاب يمكننا أن نسوق ما اعتمدته لسانيات الإدراك في مجال تفسير مهارتي "القول والفهم"، وهما مهارتان كان يعتقد أنهما تسيران في خطين متوازيين على مستوى البنية الدماغية المؤطرة للقول اللساني. فلسانيات الإدراك تقدّم تفسيرا لمهارة اللغة عند الفرد على أساس تشابك اللغة مع باقي المهارات الدماغية وليس على أساس انفصال هذه عن تلك. فالفهم

اللغوي- لأي منطوق لغوي - تفسّره لسانيات النّص بأنّه يتمّ على شكل نصوص وليس على شكل أجزاء منفصلة، هذه النّصوص يتمّ استيعابها في الذهن، والذهن ينشطر إلى ذاكرة طويلة المدى وذاكرة قصيرة المدى؛ وهذا التخزين للمعلومات النصية يكون له دور كبير في فهم وتحليل المعلومات الدلالية الواردة إليه.

فالقارئ يقرأ نصّا ما ليس على أساس أنّه متلق فقط، بل يبني فهمه لما يقرأ على أساس ما قرأ سابقا وما استقرّ في ذهنه من مطالعات سابقة. ومن هنا تدخل النصوص بمختلف أشكالها في لعبة حوارية يكون مسرحها ذهن القارئ الذي يعمل على تزويد القارئ بالمعلومات الدلالية التي تمكّنه من تفكيك شفرة النص.

"إنّ المعلومات الدلالية – كما افترضنا – لا يمكن أولا يجب أن تختزن بشكل أطول في الـ (ذ م ط د ) فتحال إلى ذاكرة المدى الطويل الدلالية (ذ. م. ط)" [12]. فهذه الأبنية النصية المتواجدة على مستوى الذاكرة الدلالية في ذاكرة المدى الطويل هي التي ينوء بها تفسير سبل الفهم والإدراك وتكوين الصورة المطلوبة عن النّص المقروء.

إنّ هذه الذاكرة الدلالية وإن كانت تتدخل في فهم ما يقرأ وإدراكه على أساس من ذاكرة دلالية مستقرّة في ذهن الفرد إلاّ أنّها تتدخل أيضا فيما يُقدم عليه هذا الفرد نفسه لاحقا وهو "إعادة الكتابة" *réexpression* وهو المبحث الذي تناولته لسانيات النصوص في إطار إعادة "إنتاج نصوص وإعادة بنائها وإنتاجها".

«*La compétence est donc le résultat d'une abstraction et d'une idéalisation des données linguistiques directement accessible à l'observation. Il s'agit des actes de parole individuels, des textes, des discours, etc*»[13]

وبهذا الاعتبار أصبحت مهارات القول عند الإنسان وخصوصا عند الأديب تكتسب مجالا خصبا يظهر أهميتها؛ ويقف بواسطتها أيُّ إنسان على مكامن الجمال الأدبي والمهارة اللسانية التي تجعل بعض المبدعين يتمكّنون من احتراف اللغة واستنزاف طاقاتها التعبيرية؛ ويعكسون شغفا بالقول اللساني يتجاوز حدود اللغة نفسها إلى إشراك عوامل الثقافة والتاريخ والاجتماع الإنساني لإخراج روائع من الأدب الإنساني تتعدّى حدود الزمان والمكان وتسجّل حضورا لافتا يُظهر إمكانيات اللغة الضخمة وقدرتها على التواصل الإنساني المبدع. "إن استخدام النصوص حالة خاصة من استخدام المعلومات التي يتطلب اكتسابها واختزانها تفاعلا متناغما بين الذاكرة الوقائعية والذاكرة المفهومية الدلالية وإعادة التأليف[14].

يظهر مما سبق أن القضايا التي أثارتها لسانيات النص وتحليل الخطاب تثبت السعي الدائم لمحاولة حصر قدرة الفرد المتكلم على ممارسة نشاط اللغة في مواقف اجتماعية مختلفة. ولقد أظهر ثراء اللسانيات المعاصرة بمختلف التيارات والمناهج والمدارس التي سعت كل واحدة منها إلى تسليط الضوء على مجال بحثها واشتغالها قدرتها على البحث والدرس والتنقيب، فكانت النتيجة كمّا هائلا من الاجتهادات النظرية والتطبيقية التي لا يمكن إغفالها أو الحط من شأنها. وهذا ما يدفعنا إلى التأكيد على طابع التداخل المعرفي الذي يجعل الباحث في ميدان اللسانيات يشفع بحثه ويسنده دوما بأحدث ما استقرّت عليه التجارب المخبرية المتلاحقة التي تستهدف الدّماغ وتتوسّل اللغة أداة للبحث ومن أجل البحث.

وهذه التجارب تبين في كل مرة أن الكلمات والألفاظ داخل اللغة تمتلك قدرة على حمل الأفكار والتصورات التي ترد على عقل المتكلم وإدراكه فهي "وحدات لغوية تتحوّل بالتعريف إلى صور للكلمات التي لابدّ من تفسيرها. فأينما وجدت كلمة وجد ما يقابلها من تصور، والتصور هو دلالة الكلمة والقول. إنّ التصور يعني الدلالة هو التعريف الأكثر شيوعا للدلالة لاستناد الأخيرة إلى حدث يعتبر في كثير من الأحيان تسويغا ذهنيا وآليّا لها "[15]. وبالتالي فإن الإطار الذي يتناسق مع ما قرّرته اللسانيات الإدراكية يتمثّل في اعتبار اللّفظ الواحد يحمل في طياته "شيفرة دلالية" "*perceptuel codes* "؛ تشتمل على تمثيل عرفي مأخوذ من الواقع الاجتماعي والثقافي والبيئي. والتأكيد على الطابع المعرفي الإدراكي لدى الوحدات المعجمية يتقاطع مع ما تقرّره البحوث اللسانية الاجتماعية المعاصرة التي تجعل التنوع اللغوي دليل صحة للعقل البشري. وأن استنساخ لغة واحدة موحّدة للبشر يحمل في طياته مخاطر شتى تصيب العقل البشري بالتراجع والجمود لأنّ كل لغة هي عبارة عن منظار إدراكي معرفي خاص بها.

*«Les conséquences de la disparition des langues sont graves à plus d'un titre. Si nous devenions tous uniformément monolingues, notre cerveau en serait affecté, au point de perdre une partie de notre créativité linguistique innée »*[16]

يتبيّن أنّ اللغة تمارس حضورا قويا يجعلها أداة طيعة تمكّن الإنسان من التكيّف مع عالمه والاندماج في منظومة وجوده. وبذلك فاللغة ليست وسيلة تواصل واتصال فقط بل هي مؤشر حيوي يضمن وجود بقاء النوع الإنساني برمّته. يُلاحظ أيضا أنّ الأثر الخطير الذي تلعبه اللّغة على مستوى الذهن البشري يؤكّد الحاجة إلى دراسة لسانية ونفسية وعصبية للغة الإنسانية تتكامل فيما بينها؛ وكلّ ذلك من أجل فهم الآليات التي

يشتغل بها الفكر البشري. وإنّما يتحقق ذلك حينما تُفهم اللّغة في إطارها الذهني الذي بدوره يعكس ثقافة خاصة ورموزا اجتماعية ترتبط بتاريخ الأمّة وحضارتها.

*« Les langues ne sont pas seulement le moyen privilégie de communication entre les humains, elles incarnent la vision du monde de leurs locuteurs, leurs imaginaires, leurs façons de véhiculer le savoir. Malgré toutes leurs parentes, elles reflètent différemment la réalité »*[17]

ومع ذلك فإن ظاهرة اللغة الإنسانية – على الرغم من وفرة الدراسات حولها- بقيت مستعصية على فهم كنهها وحقيقتها. وذلك لأنّ كلّ دارس يكتفي بمجال بحثه المتخصص، وهذا ما يفرض علينا في ظل التطور المعرفي الهائل وانفتاح العلوم بعضها على بعض مراجعة لمناهج تناول دراسة اللغة الإنسانية.

وفي هذا الإطار تبرز اللسانيات الإدراكية التي هي تسمية عامة تجري على تيار أو حركة تجمع عددا من النظريات تشترك في الأسس والمنطلقات، ولكنها مختلفة، متنوعة، متداخلة في بنائها ومشاغلها وتوجهاتها ومجالات العناية فيها.

في إطار اللسانيات الإدراكية فإنّ اللغة هي نشاط إدراكي حامل لتمثيلات إدراكية ولذلك وجب تناولها من زاوية خصائصها الدلالية، ومن زاوية تفاعلها مع سائر الملكات الدماغية من قبيل الإدراك والتذكر والتصوير والذكاء والتخيل وما إلى ذلك. كما أنّ الإقبال على تبنّي هذا الطرح يؤكد أنّ الظواهر الإنسانية في تفاعلها مع المحيطين الإنساني والاجتماعي يثبت ارتباط العلوم الإنسانية على اختلافها للإسهام في دراسة اللغة باعتبارها نشاطا إنسانيا، كما يؤكّد من جهة أخرى عدم الاقتصار على بعد واحد في دراسة الإشكاليات التي تطرحها اللغة.

وفي الأخير فإنّ تكامل الدراسة اللسانية يستدعي عدم الاقتصار على مناهج اللسانيات الحديثة –على أهمّيتها- وإنّما ينبغي العمل على انفتاح اللسانيات على العلوم الأخرى، أهمّها علم النفس وعلم الاجتماع وسائر العلوم الإنسانية.

**مصادر ومراجع البحث**


**1.** عبد المجيد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال، المغرب، ط1، 2000، ص110.

**2.**محمد بدري عبد الجليل:المجاز وأثره في الدرس اللغوي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص7.

**3** عبد القادر قنيني: المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية ص 11.

**4.** بوهاس – جيوم - كولوغلي: التراث اللغوي العربي، ترجمة محمد حسن عبد العزيز، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2008، ص 194.

**5.** شوقي ضيف: في النقد الأدبي، دار المعارف، ط7، 1998، ص170.

**6.**(فوك) كاترين – (قوفيك) بيار لي: مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ترجمة المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984 ص101.

**7.**روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء،(دى بوجراند) روبرت: النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2، 2007 ص 95

**8.**عناني محمد: الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، 2004. ص218.

**9.**روبرت دي بوجراند: نفسه، ص 96.

**10.**روبرت دى بوجراند: م س، ص111.

**11** روبرت دى بوجراند: م س، ص110.

**12** فان دايك: علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسين بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2000، ص189.

**13.**Jean Dubois : Dictionnaire de la linguistique, Larousse 1er édition 2001 P101.

**14.** روبرت دى بوجراند، ص 191.

**15.** فرانك بالمر : (بالمر) فرانك: مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة خالد محمود جمعة، مكتبة العروبة، الكويت، ط1، 1991 . ص 66.

**16**. Philippe Franchini : Année des langues 2008 /commission suisse pour unesco.WWW.unesco .eh /actualité/années internationales.

**17**. Philippe Franchini : Op cit